السيمياء

مفاهيم وأبعاد

الأستاذ جاب الله أحمد
جامعة محمد خيضر بسكرة

إن الحديث عن السيمياء بعامة والسيمياء العربية بخاصة هو الحديث عن مولود لم تتحدد سيماته، وعلم لم تعرف حدوده.

إن إشكالية السيمياء العربية ذات أبعاد ثلاث: الأول: يتعلق بالمصطلح، والثاني: يتعلق بالعلم ككل وبوسائله الإجرائية، والأخير: يتعلق بالجانب التطبيقي.

المصطلح:

كل علم يتحدد بتحديد مصطلحاته، فالمصطلحات مفتاح العلوم، بها ندخل إلى كنهها، ونجول في حدائقها، فهي مجمع حقائقها المعرفية، يقول المسدي: «إن السجل الاصطلاحي هو الكشف المفهومي الذي يقيم للعلم سوره الجامع، وحصنه المانع، فهو له كالسياج العقلي الذي يرسي حرماته رادعا إياه أن يلابس غيره، وحاضرا غيره أن يلتبس به. ومتى تحلى الدال بخصلتي الجمع والمنع كان على صعيد المعقولات بمثابة الحد عند أهل النظر المقولي الذين هم المناطقة، فيكون للمصطلح الفني في شعبة من شعاب شجرة المعرفة الإنسانية سلطة ذهنية هي سلطة المقولات المجردة في علم المنطق : فلا شذوذ إذا اعتبرنا الجهاز المصطلحي لكل علم صورة مطابقة لبنية قياساته، متى فسدت فسدت صورته، و اختلت بنيته، فيتداعى مضمونه بارتكاس مقولاته».[1]

إن تعدد الترجمات للمصطلح الواحد، يضعف مفهوم العلم و يوزع شذاه، وينقص الاستفادة منه، هذا ما نجده في السيمياء العربية و هذه نماذج توضح مدى هذا الاختلاف.

تترجم "Sémiotic" بـ: السيمياء، السيمة، الرموزية، السيميولوجيا، والسيميوطيقا، السيميائية..

ويتعصب كل فريق لترجمته و يراها الأصح والأصلح وماعداها فاسد لا يعبر عن العلم. فإذا قلت "السيمياء" قيل لك أن هذا المصطلح كان يدل قديما على علم التنجيم و أشياء تخص التنجيم و من ثم فهو غير صالح لهذا العلم، وإذا قلت : الرموزية قيل لك أنها تختلط بالرمزية، وإذا قلت: السيميولوجيا قيل لك :أن المصطلح قد تخلى عنه مؤتمر السيمياء لصالح السيميوطيقا. وهكذا وقعنا في دوامة و اشتغلنا بالعرض دون الجوهر.

فإذا انتقلنا إلى المصطلحات الأخرى داخل العلم نفسه صادفنا المشكل نفسه فكلمة "Code" تترجم بـ: كودة ،سنن، دستور، شيفرة، ويرى المترجمون أن "سنن" لا تدل على"Code" لأنها تختص بالشرع، وأن "دستور" لا تدل عليها أيضا لأنها مقصورة على الحقوق، و"الشيفرة" كذلك لا تدل عليها –أي "Code" – لأنها تدل على الكودة السرية. ومن ثم وجد بعضهم الحل في النقل الحرفي للكلمة الأجنبية فقالوا: "Code" كودة.

كذلك كلمة "Signe" تترجم بـ: علامة، دليل وهو أي "دليل" مصطلح المغاربة، وانتقدت هذه الترجمة المغربية وقالوا عنها: أنها تؤدي إلى الالتباس؛ لأن معناها الشائع هو البرهان عامة، وقد تستعمل بمعنى الشيء الدال ، ورأوا أن سبب الخلط في هذه الترجمة هو أن ابن سينا يستعمل في المنطق التعبير الآتي:"قياس أو برهان الدليل" مرادفا للتعبير الفرنسي "La preuve du signe ".

وأن المثل الذي يرد في هذا السياق هو أن "هذه المرأة ذات لبن، إذن قد ولـــدت" يشكل القرينة بالمعنى الخاص، و ليس علامة بالمعنى العام.

أيضا كلمة "Signal" تترجم بـــ: إشـــارة ،وعلامـــة. وهنـــا نصطـــدم أن "Signal" هو "Signe" عندما نستعمل لكل منهما لفظ :علامة. ولذا فضل البعـــض كلمة:إشارة لأن "Signal" هو من صنف الأشاريات "المبهمات" "Dixies" .

تترجم كذلك "Index" بـــ:المؤشر، والقرينة، والأمارة، والشـــاهد، ويـــرى البعض أن: الأمارة تطلق على العلامة الظنية ولا تختص بعلامة المجاورة. ومـــن ثم يبقى الصراع بين الشاهد و المؤشر والقرينة. ونجد الصراع نفسه في ترجمـــة كلمة "Interprétant" بين: تعبير، ومؤول.

كما تترجم "Semiosis" بـــ: تسويم، سيأمة، سيميوزس، وسمطقة.

أيضا كلمة "Rhema" تترجم بـــ: تصور، ومفردة، وخبر. ويـــرى أغلـــب المترجمين أن "تصور" أقرب هذه الترجمات إلى اللفـــظ "Rhema". إذ أن كلمـــة "خبر" غير دقيقة لأن "Rhema" هي القول الناقص مبتدأ كان أم خبرا.

تترجم كذلك لفظة "Performatif" بـــ: إنشائي، إنجازي، إبدائي. ونلاحـــظ أن كلمة : إنشائي المستعملة هنا هي اللفظة المتداولة عند البلاغيين والأصوليين في الأبحاث التي تدور حول نظرية الأفعال.

هذا هو البعد الأول لإشكالية السيمياء العربية، والذي يتجسد فـــي صـــراع المصطلح، والذي يقف عائقا كبيرا في طريق تقدم وتطور العلم العربـــي. وهـــو مظهر من مظاهر الضعف الحضاري عند العرب في هذا العصر

أما البعد الثاني للإشكالية فيتعلق بالعلم ككل، والذي لا يـــزال فـــي بدايـــة طريقه ومن ثم غموض بعض مفاهيمه، يقول مارســـيلو داســـكال: إن الصـــورة المعاصرة للسيميائيات لا تزال في طفولتها، وهي لم تتحول إلى سيميولوجيا واحدة

متوفرة على تجانس منهجي ومفاهيمي، ومن ثم «فإن السيميولوجيا لا تـــزال فـــي مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم».[2]

و قد رصد داسكال تعارض المدارس السيميائية في مستويين:

الأول: وهو تعارض في النظريات والمقترحات السيميوطيقية.

والآخر: وهو الأهم و يتمثل في التصورات التي تحدد مجال الســـيميوطيقا وما هو داخل في مجالها، وما هو خارج عنها.[3]

ويرى تودوروف أنه لا يمكن الحديث عن بناء علمي متكامل في السيمياء. وعلى الرغم من أعمال بيرس،وسوسير ،واريك بويسس، وياكبســـون، وبـــارت، وهيلمسلف، وكارناب، وغيرهم ... فـــإن «السـيميائيات تظـل مجموعـة مـن الاقتراحات أكثر منها علما، أو كيانا معرفيا مؤسسا تأسيسا سليما».[4]

وقد اعترف رولان بارت قبل تودوروف بأن السيميولوجيا كما هـــي فـــي حدودها «ليست فخا ميتافيزيقيا، وإنما هي علم من بين علوم أخرى تعد ضروريـة لكنها غير كافية»[5]

غير أن هناك من أنكر السيميائية تمامـــا، ويـــرى أنـــها لا تصلـــح لكـــل المجتمعات، وقد تحدث عن ذلك الناقد الشيلي روفائيل دال فيلار فـــي مقـــال لـــه بعنوان: "السيميائية في الشيلي اليوم :تاريخ، قطيعة، وحقل نظري" وهو يـرى «أن ميلاد السيميائية كان في البلاد المتقدمة، ومقترن مباشرة لملء حاجة... وظـــهرت السيميائية بمقابل النقص ... فإنها تضع غير المنظور من طرف الآخرين وتنظـــر إلى توجيهات أخرى غير منظورة».[6] ومن هنا فإذا كانت حاجة المجتمع الأبيض لهذا العلم بسبب الاختلال الذي يعاني منه، فإنه غير ضروري ربمـــا لمجتمعـــات أخرى لا تعاني هذا النقص وهذا الاختلال.[7]

إن السيميائيين العرب اليوم لم يتفقوا أيضا عن التصورات التي تحدد مجال السيمياء. فيسمي بعضهم دراسته بالدراسة السيميائية في حيـــن ينكرهـــا البعـــض

الآخر ويرى أنها لا تدخل في مجال السيميائية. مثل ما حدث لدراسة عبد المـــالك مرتاض "أين ليلاي" التي عدها الباحث دراسة سيميائية في حين أنكر عليه بعـــض الدارسين ذلك وقالوا أنها ليست دراسة سيميائية. وما يقال عن دراسة عبد المـــالك مرتاض يقال عن غيرها من الدراسات.

أما البعد الثالث للإشكالية فيتمثل في الجانب التطبيقي ووسائله الإجرائيـــة. إن معظم جهود العرب في مجال السيمياء تركز على سيمياء النصوص اللغويـــة، فالكتب والمقالات التي تعالج القصيدة والقصة والرواية متوفـــرة، كمـــا لا تخلـــو المكتبة العربية من بعض المؤلفات حول السيمياء النظرية.[8]

أما الدراسات عن الأنساق غير اللفظية فهي قليلة، أو شبه منعدمة. فليـــس هناك سوى قلة من الأطروحات الجامعية، غير المطبوعة، التي تتنـــاول ســـيمياء الرسم والتصوير والمسرح، وعلوم الإيمـــاء "Gestics" والحركـــة "Kinésies"[9] والبونية "Proximis"[10] من الناحية التطبيقية.

لقد تعددت نسب العلامة عند زعيم المدرسة الأمريكية بيرس"Pierce" إلـــى ثلاث نسب هي:

1. نسبة العلامات إلى الماثول أو المستحضر Repnesentamen.
2. نسبة إلى الموضوع .Opjet
3. نسبتها إلى التعبير.Interprétant

وكل فرع من هذا النسب يتفرع بدوره إلى ثلاثة تفريعات:

فنسبة العلامة إلى الماثول تتفرع إلى:

أ. علامة كيفية(Quali- Sing) وتسمى أيضا (العلامة النوعية).

ب. علامة عينية(Sin- Sing) وتسمى أيضا (العلامة المنفردة).

ت. علامة قانونية(Legi- Sing) وتسمي أيضا (العلامة العرفية).

أما تفريعات نسبة العلامة إلى الموضوع Objet فهي.

أ. شاهد (index) وتسمى أيضا المؤشر.

ب. أيقونة (Icon).

ت. رمز (Symbol).

أما بالنسبة للتعبير(interprétant) فتكون العلامة إما:

أ. تصورا(Rhema)

ب. تصديقا(Dicent)

ت. حجة (Argument)

ويمكن توضيح هذا بالشكل التالي:

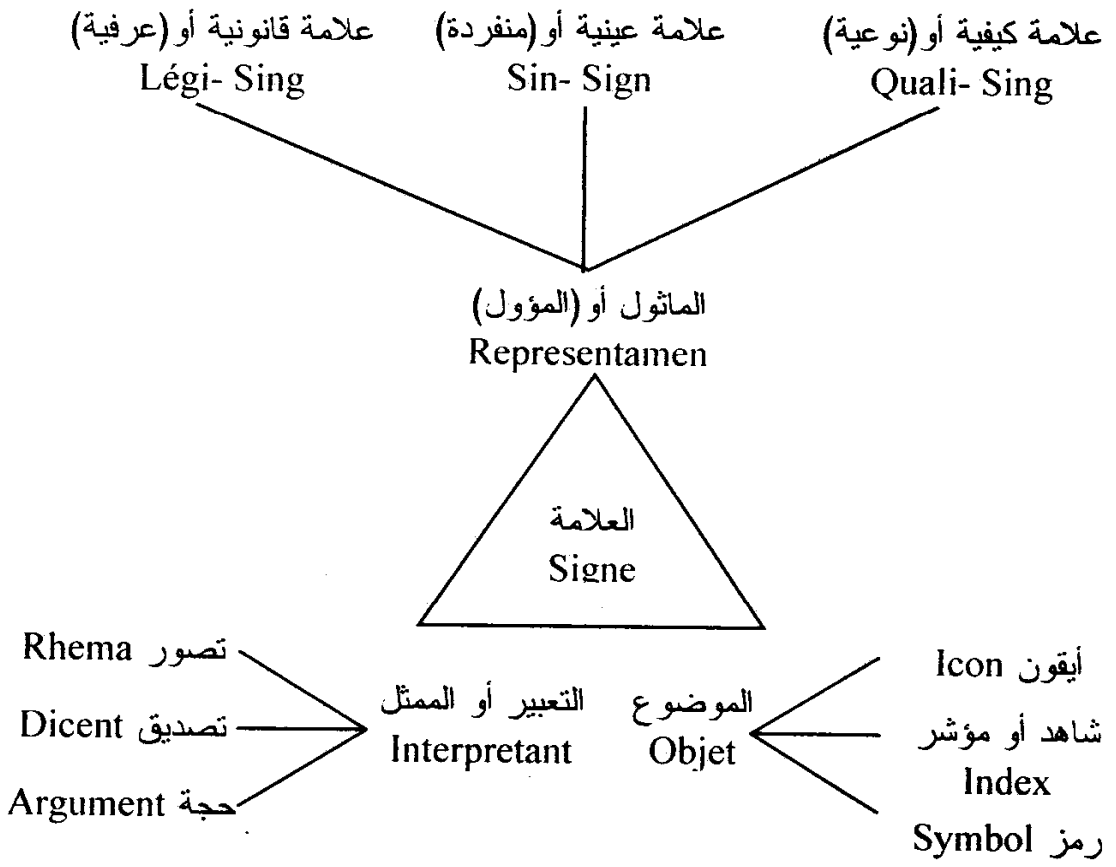

واستنادا إلى ما سبق فان العلامة لا تستقيم بالمعنى الكامل إلا بالتئام ثلاثـــة فروع، وكل فرع من إحدى الأركان الثلاثة. فهكذا مثلا إشارة المـــــرور علامـــة تصديقية شاهدية قانونية. وتكون كلمة (البيت) علامة تصويرية رمزية قانونية.

وقد وضح بيرس(Pierce) أنواع هذه العلامات المقبولة وعد منـــها ســـبعة وعشرين علامة من خلال التراكيب الممكنة من الفروع. والمقبولة منـــــها عشـــر علامات فقط، إذ يستحيل عنده وجود علامة تصديقية شاهدية عينيـــــة، أو علامـــة حجية إيقونية قانونية... وغير ذلك.

وهذا الشكل يوضح العلامات المقبولة: (الشكل ا)

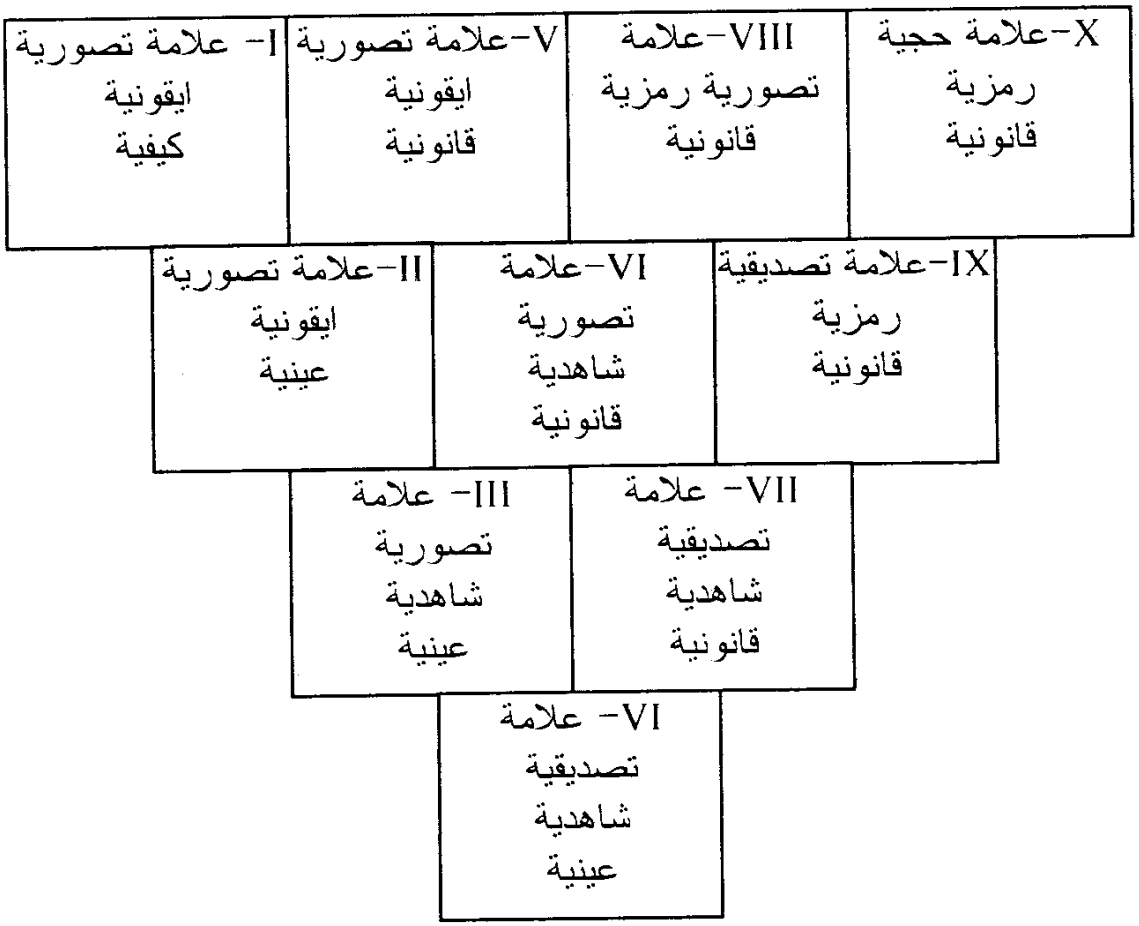

(الشكل ا)

ويبدو أن بعض هذه الأصناف التي يستثنيها جدول بيرس pierce من الوجود ممكنة التحقق، فالعلامة التصديقية الايقونية عينية كانت أم قانونية قابلة للتحقق، بل إن معظم الصور الفوتوغرافية لا تعطي فقط مجرد تصور عن الموضوع بل إنها غالبا ما تطلق حكما يقبل التصديق أو التكذيب.

وإذا أغفلنا النظر عن هذه التراكيب المعقدة واكتفينا بالثلاثية: إيقونة- مؤشر أو شاهد- رمز. كما هو شائع في الأبحاث السيميائية الراهنة. سوف نصطدم بعمومية هذه الأصناف عند التطبيق العملي من هنا كانت الحاجة إلى تقسيم كل منها إلى فروع جزئية:

لذلك أشار بيرس إلى تفريع الأيقونة بدورها إلى:

- صورة Image، واستعارة وتمثيل بياني Diagram، ويمكن أن نقول أن هذا التفريع الجديد ليس سوى عودة إلى الصورة البيانية المعروفة في علم البلاغة العربية.

إن سيميائية بيرس Pierce ذات وظيفة فلسفية منطقية، لا يمكن فصلها عن فلسفته التي من سماتها: الاستمرارية والواقعية والتداولية. ومن ثم فإن سيميائية بيرس Pierce سيميائية الدلالة والتواصل والتمثيل في آن واحد. كما أنها اجتماعية وجدلية، وتعتمد على أبعاد ثلاثة هي: البعد التركيبي، والبعد الدلالي، والبعد التداولي، والسبب في ذلك أن العلامة البيرسية ثلاثية الأبعاد: العلامة باعتبارها علامة في البعد الأول، ووجود موضوع التعبير أو العلامة (المعنى) في البعد الثاني، والبعد الأخير يتمثل في الماثول الذي يفسر كيفية إحالة التعبير أو العلامة على موضوعها انطلاقا من قواعد الدلالة الموجودة فيها.

إن العلامة لدى بيرس: تعبير، وموضوع، وماثول. وهي مبنية على نظام رياضي قائم على نظام حتمي ثلاثي، ومن ثم أصبحت ظاهرتيه ثلاثية:

1. علم الممكنات = (أولانية)
2. علم الموجودات = (ثانيانية)
3. علم الواجبات = (ثالثانية)

فالأول يعني الكائن فلسفيا، والثاني يعني مقولة الوجود. والثالث يقصد بـــه الفكر محاولته تفسير معالم الأشياء، "بينما تمثيل العلامة"، الموضوع. علاوة عـــن ذلك فالعلامة البيرسية -نسبة إلى بيرس- قد تكون لغوية أو غير لغويـــة. وهـــي أنوع ثلاثة: الأيقون، والشاهد، والرمز.

إن العلاقة بين الدال والمدلول في الإيقون هي علاقة تشابه وتمـــاثل مثـــل الخرائط والصور الفوتوغرافية، والأوراق المطبوعة التي تحيل على مواضيعـــها مباشرة بواسطة المشابهة.

أما العلاقة بين الدال والمدلول في المؤشر أو الشاهد فتكون سببية منطقيـــة، كارتباط الدخان بالنار مثلا.

أما الرمز فالعلاقة الموجودة في نطاقه بين الدال والمدلول فـــهي علاقـــة اعتباطية، عرفية (أو قانونية) غير معللة. فلا يجد ثمة أي تجاوز أو صلة طبيعية، مثل البياض ودلالته على الحزن أو الفرح، وهذا مـــن الرمـــوز التـــي تدرســـها الأنثربولوجيا.

إن العلامة التي تتوفر فيها درجة عالية من الفن والجمال هي في كثير مـــن الأحيان، -وخصوصا في الأقاويل الشعرية واللوحات الفنية والأفلام السيميائية...- ذات تركيب يبدو أنه يخضع لقواعد منضبطة. وحتى الآن لم يجـــر تحليـــل هـــذه التراكيب وتقنينها. صحيح أن البلاغة العربية تطرقت إلى الاقتران المسمى بمجاز المجاز، وصحيح كذلك أن بيرس أشار إلى الدلالة في الدرجة الثانية عند تميـــيزه بين العلامة الأصلية والعلامة الفاســـدة أو المنحـــدرة Degemerate، فالايقونيـــة

المنحدرة هي حاصل ضرب ايقونة في ايقونة مثل: الصورة الفوتوغرافية للوحة الجو كاندا، فهي ايقونية الجو كاندا ومثال ذلك كل الصور الفوتوغرافية المأخوذة للتماثيل واللوحات الفنية.

ومثال الدلالة الناجمة عن ضرب الشاهد -أو المؤشر بالاستعارة: دلالة الجعل على الشمس عند قدماء المصريين، إذ أن الجعل يدل على كتلة السماد التي يكورها برجليه، بالمجاورة، فهو شاهد أو مؤشر عليها. وهذه الكتلة تميل إلى الشمس بسبب شكلها الكروي (فهي استعارة).

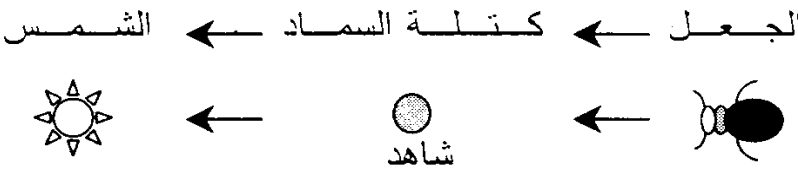

ومن هنا يمكن القول: إن هذا المخطط يعود بنا إلى البلاغة، وبالتحديد إلى المجاز. ومن ثم يكون علم السيمياء كمن استصلح ثوبا قديما لمناسبات جديدة متنوعة، وبهذا تزداد الإشكالية عمقا في السيمياء العربية، ولا سيما في جانبها التطبيقي الإجرائي.

كانت هذه بعض الزوايا في إشكالية السيمياء العربية، وهي زوايا بسيطة تحتاج إلى دراسة وتعمق أكثر، لنكشف عن كل الجوانب ونيسر العراقيل ونضع القطار في السكة.

الـــهـــوامـــش

[1] عبد السلام المسدي. قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب ص11.

[2] مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ص18.

[3] م ن. ص ن.

[4] Todorov et Ducrov. Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du lonuage. Ed. Du Seuil 1972. P : 122.

[5] R. Barthe. Illytologie. Ed. Seuil 1957. P : 197.

[6] www. Fabula. Org./semiotique. Rafael Depvicon. M : sémiotique au Chili d'aujourd'hui Histoire. Ruptures Et champ théorique.

[7] م. ن.

[8] على سبيل المثال: دروس في السيميائيات، لحنون مبارك دار توبقال، كذلك تيارات في السيمياء، لعادل فـــاخوري، دار الطليعة.

[9] Kinésies : لغة اتصال حركة الجسد الخاصة بـــ (الكنيزياء).

[10] Proximie: لغة القرب والبعد لجسدين أو اكثر في الفضاء الخاص بعلم البروكسيمياء Proximies: (أو البونية) مـــن البون، المسافة بين جسمين.